

عصمت شريف ظاهرة نضالية سياسية عابرة للأحزاب والحدود التي تجزئ كردستان

أيوب بارزاني 21.12.2011

ولد عصمت في شهر نوفمبر من عام 1924 في دمشق في حيّ الأكراد من أب وأم كورديين. وافته المنية في سويسرا يوم 9 نوفمبر 2011 عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاماً. منذ دخوله المستشفى في مدينة لوزان، زرتة كل يوم أحد، وفي معظم الأحيان بصحبة كارمين عقيلته و ابنه سيامند.

كان والداه ينويان ان يتعلم الابن مهنة محترمة تدر عليه بالعيش الرغيد بعيداً عن مخاطر السياسة ومتاهاتها، لكن اختار الابن ما يخالف رغبة والديه. وعندما سألته ألم يكن صعباً أن تسبح ضد التيار العائلي؟ قال: " لم أشعر بانجذاب لشيء آخر غير القضية الوطنية للأمة الكوردية، كانت قضية شعبي تستحوذ على جميع حواسي ولا فكاك منها.

وروى لي القصة التالية ونحن في منزله منتصف العام الحالي 2011 ، قال: "كنت ربما في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من العمر، عندما قررت مجموعة من المواطنين والطلاب القيام بمظاهرة، ولا أتذكر أسباب وأهداف تلك المظاهرة، فاشتركت فيها. ثم علا صياح وسط المتظاهرين يعلن تحرك قوات الشرطة ضد المتظاهرين، تفرق الجميع خوفاً وهربوا تاركين الساحة للنجاة، لكنني بقيت في مكاني، لأنني كنت أعتقد أن الهرب شيء مخزٍ ولا بد من المقاومة وتحمل المسؤولية. ثم جاءت قوات البوليس ولم يجدوا غيري واقفاً في الميدان، فالقو القبض علي وساقوني الى مركز المخفر، وهناك طلبوا اسمي واسم والدي، ثم أخبروا والدي بما حصل، ولم يمضي وقت طويل حتى حضر والدي الى المخفر وأمام رجال الشرطة صفعني بخفة وقال، الآن عد الى البيت.

وفي أعوام الخمسينات والستينات، كان عصمت يعبر عن ضمير الأمة الكوردية برمتها، ولايفضل جزءاً على آخر. وفي خطابه الذي ألقاه بالفرنسيه أثناء انعقاد مؤتمر اتحاد الطلبة العالمي في بغداد بحضور رئيس الجمهورية العراقية [عبدالكريم قاسم] في 23.10.1960 ، قال بوضوح: "إن الشعب الكوردي يشكل أمة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة. فنحن أمة مؤلفة من جماعة كبيرة ومستقرة من البشر. مكونة تاريخياً وقائمة على وحدة عوامل الأرض واللغة والروابط الاقتصادية والحياة النفسية المتمثلة في الثقافة الوطنية.

إننا لسنا أقليات قومية تعيش ضمن إطار الدول التي تقسم كردستان، إننا أمة قد تكونت في كردستان وبناء على الظروف الاقتصادية والتاريخية والثقافية في كردستان، وإننا أمة مقسمة سياسياً ومضطهدة قومياً ما عدا العراق.

وعند اندلاع الحركة الكوردية اثناء حكم الزعيم عبدالكريم قاسم، بقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني (حدك) وتحت قيادة ملا مصطفى، سارع عصمت الى دعمها كما حاول إخراجها من الإطار السياسي الضيق. لقد وجدت سياسة قيادة (حدك) سابقة خطيرة في تعاملها مع العمل السياسي في الأجزاء الأخرى من كردستان، والمتمثل في إخضاع النضال السياسي في الأجزاء الأخرى من كردستان لخدمة الحركة التي يقودها (حدك) ضد بغداد. وقدم مقترحات لتجنب فرض وصاية حزب على النشاط السياسي في

الأجزاء الأخرى من كردستان. وقد ثبت فيما بعد ان تلك السياسة كانت وبالاً على نضال الشعب الكوردي في الأجزاء الأخرى من كردستان.

كما انه سعى إلى تبني قيادة الحركة الكوردية وهي في بداياتها عام 1962، تكتيك حرب العصابات [البارتيزان]، على شاكلة حروب التحرر في العالم الثالث: الصين، فيتنام، الجزائر، مع إتباع دبلوماسية نشطة في الخارج وتمشية مع روح العصر، لكنه في كل مرة كان يصطدم بتخلف القيادة الكوردية ومحدوديتها السياسية وتفضيلها البقاء ضمن الإطار القبلي في العمل القتالي والثوري. هنا كان التناقض واضحاً بين توجهات عصمت السياسية العصرية وقيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني.

كما سعى عصمت الى تقوية ركائز الثورة الكوردية من الداخل والاعتماد على تنظيم الشعب الكوردي في مواجهة التحديات الكبرى، تنظيم الفلاحين وإتباع سياسة الإصلاح الزراعي في كردستان المحررة وتقديم ذوي الكفاءات في المناصب العسكرية والحزبية والسياسية وتفاذي المحسوبية والمنسوبية، ومحاربة الفساد. وأن العلاقات الخارجية يجب أن تخدم ترسيخ الجبهة الداخلية للشعب الكوردي وتقوية كفاحه المسلح والاعتماد على الذات. وكان يريد من القيادة الكوردية ان تكون أكثر شجاعة في مطالبها وأكثر وضوحاً في تحديد أهدافها.

كانت له علاقات قوية مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني (حدك - إيران) وبالأخص مع سكرتير الحزب [أحمد توفيق] وقد التقيا في بيروت صيف عام 1962 وقاما بنشاط كبير في الأوساط الصحفية العالمية وكان من نتائجه إقناع صحفي أمريكي [دانا آدم شميت] بالذهاب سراً مع أحمد توفيق الى معقل الثورة الكوردية في كردستان - عراق، وكتب الصحفي (شميت) فيما بعد، كتابه المعنون (رحلة إلى رجال شجعان) كان له صدى جيداً في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية.

وعمل عصمت الكثير في تعريف القضية الكوردية في المحافل الدولية ولدى الرأي العام العالمي. وعندما رحل الشعب الكوردي بغالبيته بعد طرد القوات العراقية من الكويت عن أرضه هرباً من بطش القوات العراقية المنهزمة في الكويت والمهاجمة في كردستان ضد شعب أعزل، مما أدى إلى نزوح أكثر من مليوني إنسان نحو الحدود التركية والإيرانية. سارع قادة معظم الأحزاب الكوردية يطلبون بإلحاح من عصمت التدخل باسمها لدى الأوساط الدولية لإنقاذ شعب كردستان من الإبادة الجماعية.

ونظراً لكون عصمت شخصية مستقلة لم ينتمي إلى حزب سياسي، فقد منحه ذلك حرية في العمل السياسي في جميع أجزاء كردستان والتعاون وبناء علاقات نضالية مع كافة أحزابها ونيل الاحترام الشعبي. وهو من بين القلائل الذين رفضوا تحويل العمل النضالي وسيلة للثراء، فما فيه من عنصر النبل والإخلاص الوطني حمته من الفساد الذي استشرى لدى العديد من القادة "الثوريين" الذين أصبحوا مليارديرية من وراء "الثورية" التي تحولت الى مهنة "ارتزاق".

حكى لي قصة وسط هذا العام 2011 حصلت معه حديثاً، فقد زاره في بيته ممثل من تعيين أحد الزعماء الكورد المليارديرية من كردستان - عراق، قائلاً أقترح أن تكتب رسالة الى [.....] وتطلب منه راتب للنقاع، وسوف أسلم رسالتك إليه وبلا شك سوف يخصص لك راتباً تقاعدياً شهرياً، كان اقتراحاً لا يليق بشخص عصمت ومنزلته النضالية التاريخية، قال لي بوضوح وبنبرة قوية: "كان ردّي، أنا أكتب رسالة إلى [.....] ؟ لن أكتب له أبداً.

¹ التفضل بمراجعة كتاب [الحركة الكوردية التحررية وصراع القوى الاقليمية والدولية. أيوب بارزاني. 2011]

كان عصمت متقدماً على زمانه، ومن هنا ربما الشعور بالوحدة في أحيان كثيرة. كانت الهوة سحيقة بين أسلوبه في النضال التحرري العصري وبين أسلوب قادة بعض الأحزاب الكوردية الكلاسيكية، لقد آلمه كثيراً حروب الزعامات، كما آلمه التحالفات غير المكتوبة بين بعض قادة الأحزاب الكوردية والدول المقتسمة لكوردستان، والتي انعكست في صراعات دموية بين الأحزاب الكوردية وقد راح ضحيتها الآلاف من أبناء شعب كوردستان. وهذا لا يليق بحركات تحررية وطنية لا بد أن يكون من أهدافها وحدة النضال الوطني والترفع عن الغايات الشخصية. توسط مرات عديدة لوقف هذا المنحى السلبي بين قادة الحركات الكوردية، ابتداءً من الخلافات بين جناح ملا مصطفى وإبراهيم أحمد في النصف الأول من الستينات في القرن الماضي، وبين حدك - إيران - وحدك - عراق، في ثمانينات القرن الماضي. كما سعى إلى إنهاء الصراع بين حدك و ينك - عراق - وحزب العمال الكوردستاني في التسعينات من القرن الماضي. ولذا ناشد الى تبني إستراتيجية كوردستانية تلتزم بها كافة الأحزاب والحركات الكوردية الوطنية التحررية.

لقد ترك عصمت للأمة الكوردية تراثاً غنياً من التجارب السياسية والنضالية والمؤلفات التاريخية والإستراتيجية تغني مسيرة النضال التحرري الكوردستاني، ويعتبر تراثه المحفوظ في المكتبة الحكومية والجامعية لمدينة لوزان، الذائعة الصيت، مصدراً لا يستغنى عنه لكل من يريد التعرف على نضال هذه الشخصية التاريخية المتميزة وصراع شعب كوردستان من أجل التحرر من التبعية والهيمنة الاستعمارية والتقدم الحضاري.